Al-Dirasat Al-Islamiyyah (Islamabad) 39:4 (2004)

مقدمة في الهوية الإنسانية والسبيكة المؤتلفة (السودان نموذجا)

عبد الفتاح رواس قلعه جي

في عالم يتشكل اليوم من جديد في ظل فقدان التوازن الذي جعل شعوبا بأكملها عرضة للاختراق تمهيدا لتفكيكها سياسيا وثقافيا وجغرافيا، وبالتالي إلى تخريش هويتها وطمس معالمها في هذه الظروف الجديدة يصبح البحث في الهوية ضرورة معادلة للوجود، لكونها مرتكزا ومرجعا من أجل التخطيط للواقع المعاصر والمستقبل الموعود. ويطرح البحث للحوار أمورا جوهرية وتتمثل في التعرّف على ما يلي:

١- هل الهوية الإنسانية لمجتمع أو شعب أو أمة مّا ثابتة أم متغيّرة؟

٢- هل الهوية يحدّدها الصفاء العرقي واللوني، أو الأحادية العقدية والاجتماعية والثقافية من وعي جمالي وتراث وعادات وفولكلور، حيث يأخذ مفهوم القومية معناه الضيّق، أم أن هذا الأمر غير ضروري في صياغة هوية شعب ما، بحيث يمكن للهوية أن تقوم على التعددية القومية فتتجاور وتتداخل وتتبادل التأثر والتأثير مجتمعاتٌ تتباين ثقافاتها وتراثها وعاداتها.

٣- ونحن في عصر تتحرك فيه قوة عظمى، وقوى أخرى معادية، انطلاقا من تذرّعها ونفعيتها وشهوتها للسيطرة والاستغلال إلى تفكيك الكيانات والشعوب، ألا يمكن لوحدة سياسية وجغرافية تتباين فيها الأعراق والثقافات أن تأتلف في وحدة تجمع المتعدّد، ويحافظ كل واحد من هذا المتعدّد على خصوصيته البيئية والاجتماعية والثقافية والتراثية مع فتح النوافذ على الآخر ليتشكل هذا الكل المتعدّد في سبيكة مؤتلفة تكون هوية موحّدة لهذا الشعب، ليس انطلاقا من مبدأ الحفاظ على الوجود القائم، أو من يوتوبيات الوحدة، وإنما انطلاقا من الضرورات الملحّة لكل جماعة في البحث عن وجود مكين وسط عالم يتملّكه القوي، بحيث يتشكل من توحّد العناصر في هذه السبيكة وجود أقوى وثقافة أغنى. وهكذا تكون التعددية قوة إضافية في المواجهة، وتفتح مجالات أرحب في التطور الحضاري؟

© Dr Muhammad Hamidullah Library, IIU, Islamabad. http://iri.iiu.edu.pk/

الثابت والمتحول في الهوية الإنسانية:

لا بد أن يكون لكل شعب هويته الإنسانية، فهي المرتكز الأساسي لوجوده واستمرار هذا الوجود، والقاعدة الجوهرية لكل فعالياته الفكرية والثقافية والاجتماعية. ولا نعني بالهوية الإنسانية هنا الهوية القومية بمفهومها الضيِّق، فليس هنالك من أمة تستطيع أن تدّعي هذا الصفاء، ولكنها أعمَّ وأشمل.

فنحن عندما نطالع الهوية الإنسانية لشعب السودان مثلاً فإننا نقرأ نصا غنيا بخطوطه وألوانه وتكويناته، كأننا أمام لوحة تشكيلية. فلكل جنس أو معتقد أو مذهب أو قبيلة أو مجتمع حضوره في هذه الهوية بما يرسمه من تكوينات وخطوط وألوان ذات خصوصية في نص الهوية التشكيلي، لتتكون من جملة هذه العناصر الغنية المتنوعة الهوية الإنسانية للسودان.

البحث في الهوية السودانية أخذ يتبلور في الربع الأول من هذا القرن تحت اسم "المسألة السودانية"، وبهذا العنوان نشر حسين شريف أربع مقالات سياسية. ولم يكن البحث في الهوية آنذاك خالصا مجردا في موضوعه، وإنما كان منطلقا ومتأثرا بوضع سياسي راهن نظرا لظروف الحكم الثنائي، تتوزّعه ثلاث تيارات تعزف على أوتارها النخبة المثقفة السودانية وهي:

- تيار القوميين السودانيين ويطالب هؤلاء بأن تكون للسودان وحدة ذاتية قائمة بنفسها، وكان من هؤلاء الصحفي حسين شريف.
- تيار قومي سوداني ولكنه متناغم تكتيكيا مع السياسة الإنكليزية في السودان.
- تيار وحدوي متعاطف مع التيار الثوري المصري، وكان دعاته يرون أن النضال الذي كان يتزعّمه سعد زغلول يمكن أن يفيد في تغيير أوضاع السودان.

وقد أخذ هذا الحوار تجلّيات ثورية أكثر ظهورا وشدة مع ظهور منشور وطني مخلص أمين عام ١٩٢٠م، وتأسيس جمعية الاتحاد السوداني المناهضة للإنكليز والتي بلغت ذروة نشاطها الأدبي والمسرحي والسياسي عام ١٩٢٢م، ثم ظهور جمعية اللواء الأبيض التي طالبت كممثلة للمثقفين السودانيين بإشراكها في الحكم، ثم بلغ التجلّي الثوري ذروته في ثورة عام ١٩٢٤م بعد اعتقال الإنكليز للمناضل علي عبد اللطيف. ما كان يحدث في تلك الفترة لم يكن مخاضا سياسيا فحسب، وإنما كان وبشكل آخر بحثا في الهوية متعدد الاتجاهات.

ومن جهة أخرى كان الاستعمار الإنكليزي يعمل على تفكيك الهوية السودانية باحتضانه المؤسسات القبلية والطائفية وتعميق النظرة العرقية، مثال ذلك أنه في عام ١٩٠٠م أنشأ كتشنر أول مدرسة حربية في السودان واختار طلبتها من قبائل النوبة والجنوب، وفي مجال الكتبة كانت الإدارة الإنكليزية تحرص على تعيين غالبيتهم من الجنوب بهدف جعل الإنكليزية لغة البلاد الرسمية، وما أخفق به الاستعمار الإنكليزي في حرب الهوية يحاول اليوم التكتل الاستعماري الجديد الأمريكي الصهيوني الإنكليزي أن يعيده بغرض طمس معالم الهوية الإنسانية السودانية وتفكيك الوحدة الوطنية وتمزيق البلاد.

من الخطورة بمكان على الهوية الإنسانية لبلد مًّا الانسياق وراء التعصب القومي أو اللوني الأعمى، أو وراء أحادية الفكر والثقافة، وتغليب النزوع العاطفي على النزوع العقلي، حتى ولو كان هذا التعصب ردة فعل على اضطهاد تاريخي. إن حركة الزنوجة التي قامت لدى المهاجرين الأفارقة في الغرب الأوربي وكان من أعضائها ومؤسسيها إيتيان ليرو وإيميه سيزار وليوبولد سينغور وآخرون، والتي نادت باكتشاف الزنجي لزنجيته أو النمر لنمريته، هذه الحركة بالرغم من أنها نهضت على نوايا دفاعية ونضالية مشروعة، وعلى تأكيد واعتزاز بالذات تجاه ممارسات وتفوق الغرب التكنولوجي فإنها انتهت إلى دعم حركات الانفصال والعزلة، وإلى إحداث شروخ في الهوية الإنسانية لبعض البلدان الإفريقية التي يقوم تكوينها على التنوع، مما شكل خطرا حقيقيا على النضال الإفريقي، وعلى وحدة الكيانات السياسية القائمة، وذلك ما تتمناه القوة العالمية العظمى والمؤازرة لها سيطرة واستغلالا، من تفكيك للوحدات السياسية والاجتماعية والثقافية الراهنة في إفريقيا.

وثمة سؤال ملح في الهوية الإنسانية: هل هي ثابتة أم متغيّرة؟

يقول دعاة التغيير في الهوية الإنسانية: إن الهوية هي مشروع مفتوح على المستقبل، وخصوصية منفتحة على الخصوصيات الأخرى. وإن قيمة الشيء ليست في ذاته وإنما قيمته في عمله؛ وبناء على هذا فإن الهوية الإنسانية متغيّرة.

ويقول دعاة الثابت: إن الهوية إرثٌ تكاملَ تكوينُه عبر السنين، به تتميّز الشعوب والجماعات، وأي تغيير في الهوية يؤدي إلى تدميرها.

نحن لا نريد أن نجري وراء أي من القولين، فكل منهما يملك قدراً من الصواب، لكنه يفتح عينا ويغمض أخرى فلا يمتلك رؤية كلية كاملة.

كان نقادنا الأوائل أمثال أبي عمرو ابن العلاء والمفضل الضبّي والأصمعي يميّزون صحيح الشعر من منحوله إثر سماعه من راوية فيقبلونه أو يرفضونه، فإذا روى أمامهم أعرابي قصيدة لامرئ القيس سرعان ما قالوا: نعم هي له أو قالوا ليست له، والأمر ليس بسرّ فهم يعتمدون في نقدهم

ومعرفتهم على ثوابت في شعر امرئ القيس تَسِمُ شعره وتشكل شخصيته الشعرية في التصوير وتناول المعاني والقاموس اللفظي، بالرغم من الفوارق والمستجدات بين قصائده. والأمر نفسه بالنسبة للوحة التشكيلية ينظر إليها الفاحص فيقول: إنها لبيكاسوا أو غويا .. إنه أسلوبه في الفكر واللون والخط والكتلة .. بمعنى أن شخصيته الفنّية تتجلّى فيها .. ولا تتكرر. ومثله أيضاً في العمارة، نحن نفرّق بسهولة بين الطراز المعماري الأيوبي والطراز المملوكي والطراز العثماني.

وتلك هي الثوابت، أو الجوهر، التي تَسِمُ الهوية بسماتها، ونحن لدينا ثوابتنا في مجالات الفكر والوعي والاجتماع والثقافة والسلوك تشكل الخطوط الأساسية لشخصيتنا، والملامح الدائمة لهويتنا الإنسانية والتي بها تتميّز عن الهويات الإنسانية الأخرى.

المثقّف السوداني ـ وهو نموذج لأشقّائه ـ قد يعجب بموسيقا بيتهوفن وباخ وغيرهما، يجلس إليها مستمتعا بالسماع كأنه يريد أن يثبت جدارة انتسابه إلى حضارة العصر الغربية، ولكن ما إن تنحدر إليه عبر النافذة موسيقاه الوطنية من عرس قريب حتى يرقص طربا، وذلك هو الثابت في الوعي الجمالي. لكن في الهوية منفسح أيضاً للصيرورة والتكوين الدائم المتجدّد كي تبقي الهوية منفتحة دائما على العصر.

لقد تجنّبت استعمال كلمة تغيير ومتغيّر عمدا واستعملت كلمة تكوين؛ لأن التغيير قد يعنى به، أو يؤدّي إلى الانقطاع وإلغاء الثوابت، أما التكوين فهو متحوّل صيروري يحمل ثوابت الجوهر ومتغيّرات العصر في حركة ديناميكية توالدية تحقق شرط التعددية.

إن العودة إلى التراث، ولا أقصد التراث العربي فحسب، وإنما تراث جميع التكوينات الديموغرافية في السودان أو غيرها مما يتماثل فيها الوضع وبخاصة في إفريقيا، إن هذه العودة إلى أهم ثوابت الهوية الإنسانية وهو التراث، واكتشافه، وتمثّله في الفنون والآداب، وإعادة إنتاجه، ونقله من الماوراء الزمني إلى الأمام المعرفي هي ضرورية في تحقيق ما يلي:

١- اكتشاف الذوات المتعدّدة المكوّنة للهوية والذات الكلّية.

٢- تعميق معرفة المواطن بثقافة وآداب وفنون وطرق تفكير الجماعات المنتظمة في الهوية الواحدة مما يجذّر هذه الهوية ويعمّق معرفته بها.

٣- المعرفة السابقة لا بد أن تؤدي إلى تبادل التأثر والتأثير، والتقارب، والتمازج، والتناغم التوافقي (الهارموني ـ Harmonic) مما يعمق إحساس المواطن بالانتماء، وبالوحدة الوطنية.

٤- بناء قاعدة صلبة لدخول عصر شديد التعقيد والخطورة، بحيث يتشكّل من القاعدة التراثية، ومن المعرفة العصرية الجديدة التي ينطلق منها كِيَانٌ حضاري متين صالح للمواجهة الحضارية التي يشهدها العالم.

٥- بناء قاعدة عاطفية عقلية من الحب واحترام آراء وتقاليد ومشاعر الآخرين الدينية والاجتماعية والثقافية بين جميع العناصر التكوينية في سبيكة الهوية المشتركة، بحيث يعيش الواحد في قلب الآخر. وإن وجود مثل هذه القاعدة لا بد أن يفرز مفكرين وفنانين وأدباء أمثال الشاعر صالح بطرس الذي نظم قصيدة وهو مسيحي يستحث فيها المسلمين على إكمال بناء جامع أم درمان الكبير عام ١٩٢٣م بقوله:

يـا مسجدا مطلت بنـوه بعهـده حتى غـدا وهو الحسير المعـدم
بدؤوك جودا بالصنيع وأحجموا مـا كـان أولـى أن ذاك يتــمم
أمنـارة الـدين الـحنيف تحيـة من شـاعر لك قد غدا يترحـم

الهوية والتعددية:

بعد سقوط النازية العرقية، وتداعي الأنظمة العنصرية، وانهيار وتفكّك قوة عظمى هي الاتحاد السوفيتي كانت ركيزتها إيديولوجيا وضعية فرضت بالدم والحديد، وكما أن الزلزال العنيف تتبّعته هزات ارتدادية كان لانهيار تلك القوة كذلك دَوِيٌّ عظيم أعقبته ارتدادات وهزّات ومازالت ـ تمثلت في تفكك كيانات عديدة، وقد أخذ هذا التفكك في مناطق أخرى شكل تصفيات عرقية ودينية كما حدث في البوسنة والهرسك وكوسوفو.

وبعد فقدان التوازن العالمي، فإن القوة العظمى التي انفردت بالتنظير للعالم بقوتي السلاح والاقتصاد وبدعاوى العولمة، وربيبتها الصهيونية كقوة تآمرية تدميرية محركها تعاليمها التحريفية، تخططان اليوم وباغتباط شديد لما يحدث من حروب وتفكك ودمار، وتزيدان النار اشتعالا، لأن هذا التفكك الذي يشهده العالم يزيدهما قوة وبغيا.

من جانبها أدركت أوربا وهي الأكثر وعيا أنها لن تكون بمنأى عن هذه النار الشيطانية، وبنظرة بعيدة المدى رأت أن المواجهة لا يمكن أن تكون إلا بالتكتلات الكبرى فكان اتحادها في السوق المشتركة مع الحفاظ على خصوصية كياناتها المتعدّدة واستقلالها، لكن الآخرين الأقل وعيا، كيف يدركون أنه لا بقاء لهم إلا بالتكتل والحفاظ على الوحدة؟ فاللقمة الصغيرة يسهل تناولُها ومضغُها وابتلاعُها، أما الكبيرة فقد تؤدّي بآكلها إلى الموت اختناقا.

إن منطق القوى الاستعمارية التفكيكي (التقويضي) لا يمكن أن يتبدل. كان الطالب السوداني في كلية غوردن محرما عليه أن يذكر أمام كلمة الجنسية: سوداني. بل كان عليه أن يكتب شايقي أو جعلي أو دنكلاوي .. إلخ. ومازال هذا المنطق بأشكاله الجديدة ينظّر لهويات أحادية تقوم على دعاوي

عرقية وقبلية ودينية ليسهل تفكيك الوطن الواحد وابتلاع أجزائه، وهو غالبا ما يهيّئ لذلك بعزل المنطقة التي يريد أن ينفّذ فيها مشروعه التفكيكي عن العالم اقتصاديا، وبقطع وسائل الاتصال والتواصل معها المادية والمعنوية مدعماً بأحدث وسائل الحصار والحرب والإعلام.

هذا المنطق الاستعماري الجديد بني على القديم وتطوّر ولم يتبدل، فعندما شقّ الإنكليز الطرق في السودان جعلوا اتجاهها من الشرق إلى الغرب وليس من الشمال إلى الجنوب لعزل الشمال عن الجنوب اقتصاديا وثقافيا وسياسيا، وهو أول إسفين يدقه الاستعمار في وحدة السودان. كما كان الاستعمار بقديمه وجديده وبمشاركة الصهيونية يعدّ لمشهد مماثل لما نفّذته قبيلة التوتسي فيما بعد في رُوَانْدَا وبوروندي ثم في الكونغو كذلك.

المثقف السوداني أدرك هذا الوضع الراهن والخطر القادم، فقد قال محمد المكي إبراهيم في قصيدته "فرح في حديقة شوك قديم":

حين أغفت عيون البنادق والموت نام
نهض العشب بين الخنادق
والزهر قام
زهرة للهوى
زهرة للجنوب
زهرة للشمال الحبيب
زهرة للتقدّم والتنمية.

من يستطيع اليوم أن يبرهن على صفائه العرقي، وعلى دمه النقي، أو على أحاديثه المختارة المفضّلة، وقد كرّم الله بني آدم جميعا، واختلطت الشعوب بالتجاور والتزاوج والهجرة، وها هو صلاح أحمد إبراهيم يخاطب أخاه الجنوبي قائلا:

في غضبة الهبباي
فكر معي ملوال
كذّاب في السودان من قال: أنا العربي النقي.

من هذا المنطلق نشأ تيار الغابة والصحراء لا ليعبّر عن طبيعة السودان الثنائية العربية الإفريقية فحسب بل ليقدّم بحثا معاصرا في الهوية، يقول د. محمد عبد الحي:

عربي أنت؟! لا
زنجي أنت؟! لا

والشاعر لا يريد أن ينفي العروبة عن العربي، أو الزنوجة عن الزنجي، لكنه يريد أن يجمع المتعدّد في انتماء وطني وإحساس عميق بالمواطنة، وهذا التعدد الإثني والبيئي والاقتصادي يمكن أن يكون امتيازا لما ينجم عنه من تعدد الموروثات الثقافية والعادات والتقاليد والأعراف، ومن انتقال الأنماط الثقافية بالتزاوج والتعليم والتجارة والإعلام والهجرة والجوار. وقد حدث هذا فعلا، وهو مستمر إلى الآن، أضف إلى ذلك أن السودان كان ممرّ الثقافة العربية إلى إفريقيا.

بحيوية هذا التفاعل العرقي ـ وفي السودان أكثر من ٥٧٢ قبيلة مفرّعة إلى بطون وعشائر ـ تصبح لوحة الحضارة أكثر غنى، وتصبح الهوية السودانية أكثر تمثلا لمعنى "الإنسانية".

إن قيام الهوية الإنسانية على التعددية هو مبدأ إسلامي يحمله النص القرآني: ﴿**يَآ أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَـى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوْبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوْا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللّهَ عَلِيْمٌ خَبِـيْرٌ**﴾ والتعارف هو التآلف والتثاقف والتبادل المعرفي، أما الاختيار والتكريم فليس مرتبطا بأعراق ومذاهب وإنما هو مرتبط بالتقوى، وتقوى الله تكون في برِّ الإنسان بأخيه الإنسان.

لقد آثرنا استعمال مصطلح "الهوية الإنسانية" لشعب ما على مصطلح الهوية القومية، لأن الخطاب القرآني كله موجّه إلى الإنسان، وإن مصطلح "القومي" يحمل في داخله بذور التفرقة والتجزئة والتفكك، بينما يحمل مصطلح "الإنساني" في داخله بذور المودة والاحترام والتعاون والوحدة والتناهي في حب الإنسان وبرّه، وتلك هي التقوى.

في هذه السبيكة، التي تأتلف عناصرها وتنتظم ضمن منظومة الهوية الإنسانية لبلد ما، سنجد كل جماعة فيها تحمل انتمائين متكاملين:

١- انتماء بدئيا للجماعة سواء أكانت قبيلة أو مذهبا أو ثقافة.

٢- وانتماء كليا للوطن بحدوده السياسية.

إن الهوية الإنسانية التي تقوم على التعددية لا بد وأن تنطلق أساسا من الديموقراطية؛ فهي الضمان الوحيد لاستمرار وحدة عناصرها وانسجامها وتآلفها، وقد يؤدّي غياب الديموقراطية إلى انفراط العِقْد وتفكك عناصر السبيكة.

الهوية والسبيكة المؤتلفة:

لم يخلق العالم أحاديا، فالأحد وحده هو الله، وإنما يقوم نظام الخلق في العالم على أساس نظام السبائك، من النظام الذري إلى النظام الكوزمولوجي، من تركيب الذرّة إلى المجموعة الشمسية. إنه نظام التعددية المؤتلفة سبكياً في الوحدة. ويقوم النظام في الجسد الإنساني على أساس السبيكة

العضوية. ويقوم النظام في جسد المجتمع على أساس السبيكة الاجتماعية. كما يقوم النظام في الكون كله على أساس السبائك الكونية.

وفي السبيكة العضوية، وفي السبيكة الاجتماعية طاقة حيوية تتغلغل في الأجزاء ولها مسارات لا تقوم على نظام الأوعية. فإنه ينظر إلى السبيكة ككلٍّ متكاملٍ متآزر، وما يصيب أحد أجزاء الجسد من مرض أو بتر يؤدي إلى الضعف واختلال التوازن في جسد السبيكة، وسيمرّ وقت طويل قبل أن تصل السبيكة الجديدة الناقصة إلى توازن جديد لها.

وتقوم فلسفة الطب الصيني على هذا الأساس، وتعتمد على تحريض الطاقة في مكان معيّن عن طريق الوخز Cing ليتمّ شفاء عضو بعيد عن منطقة الوخز، فالوخز في ميريديان معيّن في الأذن مثلاً يؤدّي إلى شفاء مرض في الصدر كالربو، أو في اليد، أو يكون له تأثير فعال على سلس البول، فالجسد الإنساني في الفلسفة الصينية هو مثل الكون يعمل على أساس التوازن الطاقوي ما بين الموجب والسالب أو ما بين اليانغ Yang واليين Yin وهما متداخلان في سبيكة واحدة.

وفي سبيكة اجتماعية ديموغرافية مؤتلفة منصهرة مثل الجسد السوداني طاقة حيوية تعطيها خصوصيتها وقوتها وفاعليتها. فإذا اشتكى جزء من هذا الجسد ضعفاً فإن تحريض الطاقة في جزء آخر على الميريديان الطاقوي نفسه يؤدي إلى تدفق الطاقة على هذا المسار إلى الجزء المريض مما يساعد في شفائه. وفي المقابل فإن تفكك هذه السبيكة، والتي هي ليست كمثل السبيكة المعدنية، وإنما هي سبيكة عاقلة مدركة تتغلغل في حناياها الطاقة الحيوية، إن تفككها هذا يؤدي إلى تفكك هذه الطاقة الحيوية وانفصالها؛ ذلك أن عناصر معينة في كل جزء هي مؤثرة في عناصر معينة في الجزء الآخر .. وهكذا يتداخل التأثر والتأثير في محيط الدائرة وأقطارها. وبلغة عملية ـ على سبيل المثال ـ نقول: إذا اشتكت منطقة ما في السودان كجوبا مثلاً من ضعف اقتصادي وما ينجم عنه من فقر وغيره فإن شق طريق، أو إنشاء ميناء بحري في منطقة أو مناطق أخرى على المسار نفسه "أي منطقة التحريض" يؤدي إلى انتعاش اقتصادي في تلك المنطقة، بالإضافة إلى وجوب الوخز أو تحريض الطاقة في منطقة الضعف نفسها.

أليس هذا أيضاً مضمون الآية الكريمة ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُوْنَ إِخْوَةٌ**﴾ ومضمون الحديث النبوي الشريف: "مثل المؤمنين في توادّهم وتراحمهم وتعاطفهم، مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو، تداعى له سائر الجسد بالسَّهر والحمَّى"[1]. وتدل كلمة تداعى هنا على معنى اجتمع وتآزر للمساعدة.

١- **صحيح مسلم**، ج ٤، ص ١٩٩٩، طبعة دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٧٢م.

ما الذي يحدث لو قام الجسد الإنساني على نظام الأحادية والانفصال وليس على نظام السبيكة؟ وما الذي يحدث لو قام الجسد الاجتماعي على نظام الأحادية والانفصال وليس على نظام السبيكة؟ ألا يؤدي ذلك إلى تماوت الأجزاء أو ضعفها وتعرّضها للأدواء؟ والطاقة السبكية الاجتماعية تأخذ دورها الفاعل الأكبر بالإيمان "مثل المؤمنين في توادّهم وتراحمهم.. إلخ"؛ فهي طاقة حيوية إيمانية. وهذه الطاقة في سبيكة اجتماعية تعددية كالسودان هي مصدر القوة، وأساس التنمية، ونسيج التواد والتراحم، وهي آخر قوة الحضارة والدرع الواقية ضد قوى الطغيان.

تعمل القوة الطاغية العظمى اليوم على رسم خرائط جديدة للعالم بحيث تحقق هذه الخرائط مصالحها على حساب مصالح الشعوب، وبالرغم من أن دولة عظمى كالولايات المتحدة تقوم هويتها على مبدأ السبيكة حيث تجمع أعراقها ومجتمعاتها وأديانها ومذاهبها سبيكة مؤتلفة إلا أنها في تعاملها مع الشعوب تميل إلى تفكيك السبائك وتمزيق الهويات ودعم حركات الانفصال، وهي كثيرا ما تجد استجابة لمخططاتها لدى الجماعات التي ليست على درجة مؤهلة من الوعي، والتي لا تدرك أخطار التفكك والانفصال، فتنساق وراء الدعاوي القبلية أو الدينية أو القومية، ولا تملك رؤية كلية شمولية لأخطار التقوقع والانعزال والتجزئة التي تؤدّي بشكل حتمي إلى الضعف.

إن سبيل القوة اليوم هو في التكتلات الدفاعية: سياسيا واقتصاديا وثقافيا، وفي السبائك التي تتعدد وتتآلف وتتعاضد عناصرها. إن الحضارات الكبرى هي نتاج التعدد والتنوع، وما بلغت الحضارة العربية الإسلامية ما بلغت من عظمة ورقيّ إلا بتلك السبيكة الرائعة للدولة الإسلامية التي ائتلفت فيها شعوب وأعراق متباينة عربية وفارسية ورومية وهندية وإفريقية وأندلسية.

وإن سبيكة كهذه في السودان المتنوع الأقاليم المتعدّد الأعراق والقبائل والديانات، يمكن أن تكون قاعدة لحضارة سودانية ذات خصوصية، منفتحة على الحضارات الأخرى من غير أن تفقد وجهيها العربي والإفريقي، وتكون سبيلا للقوة في حوار الحضارات وفي التصدّي للأطماع الأجنبية.

ولهذه السبيكة شرطان:

١- **شرط الانصهار**: فهي سبيكة منصهرة في الأهداف والآمال والمصالح الوطنية الشاملة، وفي إرادة الوجود.

٢- **شرط الائتلاف**: فهي سبيكة مؤتلفة في الأعراق والديانات والثقافات.

ويجمع عناصر هذه السبيكة المنصهرة المؤتلفة تاريخ سياسي متجاور ومتداخل ومشترك منذ ممالك كرمة ونبتة ومروى وسنار والثورة المهدية وحتى العصر الحاضر، وسمات متقاربة في الشخصية السودانية من عِزّة وشجاعة وتعاون وكرم ومروءة.

أما العربية التي يتحدّث بها معظم سكان السودان بدرجة من الاختلاف في النبرة، وبها يتحدث الكثير من المجموعات غير العربية إلى جانب لغاتها المحلية، فإنها باتفاق الجميع يمكن أن تكون عامل ائتلاف وتوحيد وتفاهم وقوة بين جميع الأقاليم والمجموعات البشرية.

يقول د. عون الشريف قاسم في مقدمة قاموسه: "كل هذا التنوّع في الطبيعة والبشر يجد صداه في مجال اللغة إذ أن كل هذه العناصر التي مرّ ذكرها ترتضخ لغاتها الخاصة بلهجاتها المتفرّعة، ولكن معظمها يتخذ من العربية أداة للاتصال والتفاهم، ولا نستثني من ذلك القبائل النِّيلِيَّة التي كانت وما تزال تتخذ من العربية وسيلة للتفاهم فيما بينها، الأمر الذي دفع بالمستعمرين الإنجليز في مطلع هذا القرن إلى محاربة اللغة العربية في الجنوب ومحاولة إحلال اللغة الإنجليزية محلّها دون طائل".

وتتفاءل النخبة الثقافية بأن المحنة الشديدة يمكن أن تكون مخاضا لفجر جديد، ووطن حر عزيز يتعايش فيه الجميع على بساط من الحرية والاحترام والمحبّة. يقول محمد المكي إبراهيم:

ستخبرك الحرب أن لنا وطنا واحدا
واشتريناه بالدم والدمع والزلزلة
والإخاء الذي نتحدث عنه كثيرا
صنعناه في ساحة الحرب
بين أعاصيرها الهائلة
والرضاء بأن نتعايش في وطن واحد
جاء من فتحات البنادق
والطعنة القاتلة
فإذا بعيون البنادق تغفو
وينتفض العشب بين الحصون
وعلى شاطئ النيل يولد شعب جديد
وطن للهوى
وطن للتقدم والتنمية
وطن للعروبة في قلب إفريقيا
وطن بسماوات مفتوحة للصعود
وطن بدراويش من طينة النار

ينتظرون وراء الحدود
وطن للهوى
للمحبة والتنمية.

لكن الهوية لا تصاغ بالتنظير ورؤى الأحلام وإنما بالممارسة العملية ومباشرة الحياة المشتركة والتفاعل مع الواقع، وهي تتأصل وتتعمق وتقوى جذورها بالحوار الثقافي والفكري الحرّ، وهو السبيل إلى اكتشاف الذات وفهم الآخر في السبيكة المؤتلفة والدخول إليه من بوابة المعرفة والاحترام. ولكن ذلك لا يكون إلا بوضع وسائل الاتصال والمعرفة من إذاعة وتلفزيون وصحف ومؤسسات وهيئات ثقافية واجتماعية وسياسية وتربوية وما تنشره أو تعقده من ندوات ومؤتمرات وما تضعه من مناهج، في خدمة هذه الأهداف، وذلك هو الحوار الأكثر عمقا والأكثر فاعلية وتأثيرا، وهو أيضاً القاعدة الأساسية للحوار الذي يقيمه السياسي.

إن حواراً كهذا بدأ فعلا على صفحات المجلات ووسائل الاتصال الأخرى، وبالرغم من أنه جاء متأخرا لأسباب عديدة إلا أنه لا بد وأن يكون منتجا، وقد كان الأدباء والشعراء والباحثون من السبّاقين إليه، وقد ظهر أفضل تجلّياته الشعرية في اتجاه الغابة والصحراء وهو موضوع حديثنا في ورقاتنا هذه.

تجلّيات "الغابة والصحراء" في السودان:

لقد ظلَّ البحث عن جذور الشخصية السودانية ومكوّناتها وعن الهوية الثقافية، محور الحوار وبالأخص في مرحلة ما بعد الاستقلال في بلد تميّز بالتعدد والتنوّع، حتى أصبحت الحاجة مُلحّة لعقد ندوة عن الثقافة السودانية، وقد انعقدت الندوة الأولى عام ١٩٩٤م وأكدت في أوراق عملها هذه الميزة، وأظهرت دور هذا التنوع والتعدد في إغناء وتنمية الثقافة الوطنية وتطورها، ومن هذا المنطلق تغدو إعادة قراءة الواقع الثقافي السوداني بمعطياته المختلفة، واتجاهاته المتعدّدة، وأبعاده الجغرافية: شماله وجنوبه، شرقه وغربه، ضرورة ملحّة للكشف عن جدلية العلاقة بين هذا التنوع الثري الواسع وبين الوحدة في السبيكة الوطنية المؤتلفة. وإن مثل هذا الحوار الثقافي الديموقراطي القائم على الاحترام المتبادل بين جميع الفئات المشتركة فيه، والمتمسك بالأصالة والجذور مبدأ وجوهراً، المنفتح على ثقافة العصر حركةً وصيرورةً، هو الطريقة المثلى في صياغة سليمة لمشروع الإنسان السوداني، وفي صياغة نظرية ثقافية وطنية تكون درعاً للسودان ضد اختراقات الغزو الثقافي، وجسراً واصِلاً بين الثقافتين المتجاورتين والمتداخلتين تاريخيا: العربية والإفريقية، واللتين تتعرضان للأخطار نفسها في عصر الغزو الثقافي والاقتصادي والعسكري.

لم يكن من الصعب على زائر مثلي للسودان قدم في مهمة مسرحية أن يكتشف بأن هذا البلد الشقيق هو قارة ثقافية تتعدد فيها الثقافات ويتنوّع فيها التراث بتنوّع القبائل والأقوام. وتجمع الطبيعة السودانية الهادئة المسالمة هذه التعددية في إطار الحب والاحترام المتبادل، كما خففت هذه الطبيعة الإنسانية الطيّبة من حدة الصراع بين الثقافة العربية الإسلامية وبين الثقافات المحلية الأخرى، وكان قد بلغ هذا الصراع أوجه إبان المعركة السياسية والفكرية المحتدمة حول فكرة "السودان بين الاستقلال والاتحاد". وكان من المنادين باستقلال الثقافة السودانية محمد أحمد المحجوب ومنير صالح عبد القادر ومحمد المهدي المجذوب والهادي آدم.

قبل الحرب العالمية الثانية وبعدها كانت أصداء الاتجاهات الشعرية العربية المعاصرة قبل الحرب العالمية الثانية تتجاوب في الشعر السوداني من رومانسية: مدرسة أبولو، والديوان، إلى ترانيم شعر المهجر. وكانت المنابر الشعرية في أم درمان والخرطوم وود مدني قد تعددت، ولأول مرة عام ١٩٤٣م يحظى الشعر بالجوائز والحوافز الأدبية، وبدأت تتأسس تجمعات أدبية كجماعة دار الفكر ١٩٥٤م والندوة الأدبية ١٩٥٥م وشعراء الكتبية المثاليين المنصرفين عن الأحداث الساخنة، وظل الشعر السوداني غارقا في بحر الرومانسية إلى أن ظهر اتجاه نضالي وطني واتجاه سياسي على يد محمود أبي بكر في "أكواب بابل على ألسنة البلابل"، وعبد الرحمن شوقي وجعفر حامد البشير وأبي طراف النمري وحسن عزت ، وأصبح الشعر السوداني أكثر واقعية والتصاقا بالقضايا الساخنة وبالأماني القومية، وقد مهد ذلك لظهور الاتجاه الواقعي في معالجة قضايا إنسانية واجتماعية كصوت الناصر قريب الله ومحمد المهدي مجذوب ومحي الدين فارس وصلاح أحمد إبراهيم وغيرهم، وهكذا بدأ الشعر السوداني ينفتح على القضايا الإنسانية من نوافذ الواقعية التي ما زالت مختلطة بالرومانسية والواقعية الاشتراكية:

سأغنّي آخر المقطع للأرض الحميمة
للظلال الزرق في غابات كينيا والملايو
للمنارات التي شيّدها أول مايو
لليالي الفرح الخضراء في الصين الجديدة.

وقد بلغ هذا الاتجاه أوجه في الخمسينات مع اشتداد حركات التحرر في المغرب والسودان والعدوان الثلاثي على مصر، وتعمقت لدى الشعراء قضية الالتزام، غير أنهم لم يستطيعوا التخلص من الخطابية والمباشرة والتقريرية في أسلوبهم الفنّي وفي تناولهم لموضوعاتهم.

كان الرمز واحدا من تلك الجسور التي أوصلت شعراء الواقعية إلى قصيدة حديثة على صعيد الموضوع الشعري وعلى صعيد لغة الشعر نفسها التي تخلّت عن أرستقراطيتها، وأصبحت أكثر صيرورة

وجماهيرية، كما منح الجنوح إلى الأسطورة القصيدةَ الحديثةَ عمقاً دراميًّا وجعلها أكثر ارتباطا بالجذور الإنسانية. وسرعان ما تخطّى الشعر السوداني عتبة الرمز والأسطورة العالمية إلى عتبة أخرى أكثر أصالة وعمقاً ودلالة، وذلك باستلهام التراث الإفريقي واستخدام مصطلحات المكان الحضاري، واستلهام موروثاته من السحر والأساطير والخرافات. وهكذا أصبح للشعر السوداني نكهته الخاصة، وبدأت القامة السمراء الجميلة لإفريقيا تبرز لا في القصيدة فحسب وإنما في عناوين الدواوين أيضاً، فكتب محمد الفيتوري "أغاني إفريقيا" و "عاشق من إفريقيا" و "اذكريني يا إفريقيا" و "أحزان إفريقيا" وتجاوز الشاعر عقدة اللون ليدخل في صلب المعركة الحضارية والنضالية ويغني ثورات العالم ضد الاستعمار والاضطهاد، كما فعل صلاح أحمد إبراهيم في ديوانه حيث أفرد فيه قصائد بعنوان: **لومومبيات**، وغنّى ثورة الجزائر وثورة الماوماو، وغنّى تاج السرّ حسن نضالات الشعوب في آسيا وإفريقيا ولم تعد كلمات صلاح أحمد إلى زميله عبد الله الصومالي تثير في نفس القارئ الإفريقي شيئاً:

هل ذقت هوان اللون
ورأيت الناس يشيرون وينادون
العبد الأسود.

لقد بدأت مرحلة جديدة هي مرحلة الاعتزاز بالموروث الإفريقي، واستلهامه في تقديم تجارب شعرية حداثية، وهذا ما نجده لدى محمد عبد الحي في قصيدته المطوّلة "العودة إلى سنّار" والنور عثمان في "صحو الكلمات المنسيّة"، وعبد الرحيم أبو ذكرى في "الرحيل إلى الليل" وكانت أول معرفتي بالشاعر الراحل محمد عبد الحي منذ سنوات حين قدّم لي صديقي الناقد المسرحي السوداني البشير سهل جمعة ديوان "العودة إلى سنّار" ورأيت فيه من خلال رموزه الإفريقية الكثيفة عملا فنّيا سودانيَ النكهة متميّزاً، ونزوعا إلى فردوس مفقود تجلّى رمزا شعريا في "سنّار" المملكة التاريخية الأكثر شهرة في تاريخ السودان، حتى إن بعض الأصوات ارتفعت ذات يوم لتسمية السودان باسم "سنّار".

لابد من وقفة قصيرة أمام قصيدة الأستاذ محمد عبد الحي التي يتألف منها الديوان لأنها النموذج الأكثر تعبيرا عن الحداثة والعودة إلى الذات عبر التشكيل الجمالي الحميم الذي يتعانق فيه الموروث الصوفي مع الموروث العربي والإفريقي، وهو يصدّر الديوان بهذه العبارة: يا أبا يزيد ما أخرجك عن وطنك؟ قال: طلب الحق، قال: الذي تطلبه تركته في بسطام! فتنبه أبو يزيد ورجع إلى بسطام، ولزم الخدمة حتى فتح عليه".

العودة إلى سنّار هي عودة إلى الذات الإفريقية حيث يتشكل في روح الشاعر ضمير أمته إنها تماثل عودة البسطامي إلى بسطام بحثا عن الحق، فما نبحث عنه ليس خارجا عن كَيْنُونَتِنَا، إنه كامن فنّيا، وهذه الانطلاقة هي من الضرورة بمكان من أجل عمارة حداثية لصيرورة غير منقطعة.

وسنّار هي عاصمة دولة سودانية استطاعت أن توحّد السودان في بداية القرن السادس عشر الميلادي، وكان ظهورها إثر سقوط غرناطة والقسطنطنية. وهذا الاسم "سنّار" له قيمته وقدسيته في السودان، إنه بمثابة الفردوس المفقود، وقد حضرت في ٩٦/٣/٢٥ في مسرح أم درمان عرضا للمسرح القومي السوداني بعنوان "سنّار المحروسة" تأليف الطاهر شبيكة وإخراج المخرج القدير مكي سنادة، وراح مكي يحدثني عن سنّار شبيكة وسنّار محمد عبد الحي وسنّار التي عوضت سقوط غرناطة، هكذا يعتقدون ولا أدري ما العلاقة بينهما! المهم أنه بهذه القدسية التاريخية ينظر السودانيون إلى سنّار، أما الشاعر محمد عبد الحي فإن سنّار تتحول لديه إلى مخزن للأسرار والرموز والإشارات الوامضة في تشكيلات لغوية تتزاحم فيها الألفاظ الموحية: الغابة، البحر، الصحراء، رؤى المتصوفّة، السمك الراقص، الملك الساحر، حديقة الورد، الأهل الذين يستقبلونه على مشارف سنّار ... هكذا تتلامع وتزغرد الألفاظ والتعابير الشعرية في أنساقها الدلالية والتصويرية بشكل عجيب ومدهش يمزج الطبيعة بفيزيقياء الذات:

الليلة يستقبلني أهلي
خيل تحجل في دائرة النار
وترقص في الأجراس وفي الديباج
امرأة تفتح باب النهر وتدعو
من كلمات الجبل الصامت والأحراج
حراس اللغة، المملكة الزرقاء
ذلك يخطر في جلد الفهد
وهذا يسطع في قمصان الماء.

ينبثق الوعي التشكيلي لدى الحداثيين من شعراء الغابة والصحراء من ذلك التمازج المدهش بين ثقافتهم الغربية، وثقافتهم العربية والإفريقية، وجنوحهم الطبيعي الموروث إلى الإيمان بالخوارق والأولياء والمتصوفة وحب الإنسان وأرواح الأجداد وقداسة الماضي، لكن هذا أيضاً يترك في أشعارهم خيط ألم من الواقع المعاش، غير أنه من هذا المزيج يصل شاعرٌ كعبد الحي إلى تكوينات مرئية ومسموعة ومحسوسة، إنما الألفاظ فيها شخصيات مسرحية على الخشبة تروح وتغتدي:

ولم يزل طير دمي يصيح
كجرس في الريح طير دمي / طير دمي/ طير دمي
ويضرب الموج براري حلمي، وتحمل الرياح لي مرة ثانية رائحة البحر ونقشا من
نقوش لغة ميتة على الجراح.
الليلة يستقبلني أهلي
أرواح جدودي تخرج من
فضة أحلام النهر ومن
ليل الأسماء
تتنفس أجساد الأطفال
تنفخ في رئة المداح
وتضرب بالساعد
عبر ذراع الطبال.

محمد عبد الحي يمثل اتجاها حداثياً في الشعر السوداني استوعب تراث العربية الأصيل، والتراث الإفريقي القديم، والتراث الإنساني، وتعدد الثقافات والعادات في السودان بحكم بنيتها الديموغرافية، وفيه تكتسي تلك الرموز الكثيرة الزاخرة كالزهرة والثعبان المقدس وسلوكيات إسماعيل صاحب الربابة، والمداح، وجلد الفهد، وصديقة الورد البدائية، واللغة الزرقاء، والنقش القديم على جدران مدينة ميتة ... تكتسي حلة العصر بدلالاتها الأولى والجديدة لتأخذ بعدا معرفيا مدهشا، وتتخلق من جديد في تشكيلات جمالية غنية ومشعة:

في هاجرة الصحراء أزيح قباب الرمل
عن نقش أسود، عن ملك
يلتف بأسماء الشفرة والشمس
والرمز الطافر مثل الوعل.
فوق نحاس الصحراء
اسمع صوت امرأة
تفتح باب الجبل الصامت تأتي
بقناديل العاج إلى درجات الهيكل والمذبح
ثم تنام ـ ينام الحراس ـ

لتولد بين الحرحر والأجراس
شفة، خمرا، قيثارا
جسدا ينضج بين ذراعي شيخ
يعرف خمر الله وخمر الناس
لغة فوق شفاه من ذهب أم نور في شجر الحلم المزهر
عبر حدود الذاكرة الكبرى
الذاكرة الأولى
أم صوتي
يتكور طفلا كي يولد
في عتبات اللغة الزرقاء
وتجيء أشباح مقنعة لترقص حرة زمنا
على جسدي الذي يمتد أدغالا سهوبا
تمرح الأفيال
تسترخي التماسيح، الطيور تهب مثل غمامة، والنحل مروحة
يغني وهو ينسُل في تجاويف الجبال، وتستدير مدينة زرقاء
في جسدي، ويبدأ صوتها، صوتي، يجسد صوت شعبي،
صوت موتاي الطليق.

يهرب السوداني من حرّ الصيف اللاّهب فيهاجر، والسودانيون أكثر الناس هجرة إلى أصقاع الأرض وأكثرهم حنينا، ويجمع شمل أغلبهم شتاء الوطن بمناخه المحبب، قال لي صديق: "أغلبنا لا يحتمل حرّ الصيف فيهاجر، وتفنيه الغربة فيعود، ليشدّ الرحال مرة أخرى، نحن السندباد". وتحدّثنا عن بوادر مقاطعة للسودان تلوح في الأفق الدولي آنذاك، قال لي صديقي: وما حاجتنا إلى السيارات .. بمنتهى البساطة، إن حدث هذا، فإننا نعود إلى السير على الأقدام ووسائط النقل القديمة، ولدينا في السودان من التنوع الغذائي ما يكفينا، وكان ينصحني باستمرار بحضور الطقوس الصوفية لاحتفالات "حمد النيل" فقد كان شديد الإيمان بها.. لم يكن هذا حديث ذكريات فحسب، ولكن ثمة عوامل مكوِّنة لطبيعة الإنسان في السودان شديدة الصلة بنفسيّته وتاريخه وبيئته، تنعكس في عوالم شعرائه وأدبائه المتميّزين بثقافتهم العالية والتي تجمع ما بين الثقافة العربية والثقافة الغربية والمحلّية والإفريقية. وثمّة توقان أبدا إلى الخروج من الراهن، بالرغم من معايشته وقبوله، إلى فردوس

مفقود، إلى يوتوبيا لم يجدها في عوالم الغرب. ويعمق هذه المشاعر والأماني طبيعة السودان الهادئة، والسهوب الممتدة إلى ما لا نهاية، والحياة الريفية حتى في العاصمة، والإحساس ببطء الزمن وتواضعه، والإيمان لدى فئة عريضة من المثقفين بله العامة، بطقوس وأفكار تنتجها طرق صوفية. ولكن ذلك كله لا يمكن أن ينزع من نفس الفرد ذلك الأسى والحزن والكآبة التي ترد رمادية شفيفة حيناً، ملوّنة حينا آخر. هذه الجوّانية يصفها الشاعر عبد الرحيم أبو ذكرى:

زمانا ثم يمضي الليل في نهر من الإطراق
بلا نور تلألئه المصابيح المسائية
ولا من عابر أو نور دراجة
يهل على الرصيف المتعب الغرقان في الأسرار
ومن حين إلى حين يدور قتال
تؤجّجه كلاب ضالة صعلوكة النظرات
فأشعر بالأسى والخوف، إن رياح نوفمبر
تفتح في العيون الموت والرسل الجحيمية
وأسواراً من الأسلاك والريح العدائية.

قضايا الإنسان وصوت الواقع الاجتماعي، التي سادت فترة، كانت متأثرة بالصوت الشعري السائد في الوطن العربي وبشعراء الالتزام فيه، غير أن الشاعر السوداني مع تأصل وسيادة مدرسة الشعر الحديث راح يبحث في تجربته الشعرية عن آفاق أكثر رحابة على صعيد لغة الشعر والموضوع الشعري، واتجه الشعر إلى جوّانية تغني الذات وتسيد لغة الوجدان، وبدأ غياب للواقع الاجتماعي الراهن، وللحدث السياسي والتارخي، وهذا ما نلاحظه في قصائد الشاعر النور بكر عثمان وكان لا بد لمثل هذا الاتجاه أن يعتمد الرمز والأسطورة والشيفرة اللغوية التي تصل حدود الغموض، وهكذا بدأ أوّلُ الرفضِ لتقاليد الشعر العربي التقليدي وجمالياته الموروثة ليتبلور شيئا فشيئا في اتجاه عرف باسم اتجاه الغابة والصحراء، والغابة رمز للإفريقية والصحراء رمز للعروبة، والجمع بينهما يعني التأكيد على ملامح المجتمع السوداني المتفرّد بكونه قارة ثقافية كما أشرت، وإلى أن يكون الشعر محتوى لقدرات المكان الحضاري السوداني والذي يكمن عطاؤه وغناه في تعدّده الثقافي. وهكذا أصبحت القصيدة الجديدة قاموسا لمفردات حضارية عربية وإسلامية وإفريقية: المصحف والعباءة والسبحة، والتمساح والطبل والأبنوس، ونبات الماء، والبدوية السوداء، والثور الإلهي ... والباحث لا يمكن أن يخطئ تأثّر شعراء الغابة والصحراء بالاتجاه الذي أسس له أدونيس وخليل حاوي في الشعر العربي. وقد قاد هذا الاتجاه الشعراء إلى صوفية جديدة تبحث عن الخلاص من

خلال الأحلام والحقائق الروحية وشحن القصيدة بالرموز التاريخية والأساطير وبالوقوف على أطلال زمن حضاري مضى من باب الغياب، يقول محمد عبد الحي في قصيدة "العودة إلى سنّار":

سأعود اليوم يا سنّار حيث الرمز خيط
من بريق أسود بين الذرى والسفح
والغابة والصحراء
والثمر الناضج والجذر القديم.

يقول مجذوب عيد روس في مقالته "الثقافة الإفريقية الحديثة ـ الشعر وتيّار الغابة والصحراء": "نحاول هنا في السودان منذ عقد الثلاثينات أن نتبيّن أمر هويتنا الثقافية، وينظر كُتّابنا ومُفكّرونا حول أصل الثقافة في السودان وانتسابها إلى القارة الإفريقية، وقد اختلط الأمر عندنا بالسياسة، وقد ظلّ هذا الأمر يتجدّد الحوار حوله كلما أظلتنا حقبة جديدة، أو كنّا على أعتاب تحوّل جديد في حقول الفكر والسياسة والثقافة".

باستمرار كانت الشيفراتُ التي تبثّـها مراقب الشعر والأدب والفكر الحرّة الحقيقية إرهاصاتٍ بأحداث سياسية وتحوّلات قابلة، وبما يشهده السودان اليوم من صراع دمويّ. وكان نهج المبدع دائما، شاعرا أو أديبا أو مفكرا، أن يلجأ إلى الحوار الحضاري في قضية تبدو مشكلة آملا من خلال الحوار الأخوي والحضاري أن يصل إلى تكاملية ثقافية تجمع المتعدّد في وحدة وطنية ـ ثقافية شاملة وغنية. يقول الشاعر محمد المكي إبراهيم:

"حركة الغابة والصحراء كانت أول معول حتى يتفتح بعد ذلك وعي جديد بأن العروبة محتوى ثقافي وموقف سياسي وأمل لمستقبل باهر، لم تكن الغابة والصحراء حركة للتزنج رغم أنها كانت تفطن الناس إلى ما اكتبسوه من وجودهم في أرض إفريقيا مع عناصر غير عربية، وهذه المكتسبات نحن لا نريد القضاء عليها فكريا لكي نجوهر أنفسنا كعرب خلّص... ليس ضروريا، بل على العكس، في هذا إضافة جديدة للعروبة ... ونريد أن نحافظ على مكتسباتنا الإفريقية داخل إطارنا العربي الأصيل".

رغم الحرب الدموية أفواج المهاجرين من الجنوب لا يجدون مأمنا لهم إلا لدى إخوانهم في الشمال، فهم يتجهون لا إلى الدول المحيطة وإنما إلى الشمال، ورغم الحرب فإن حوارا وتعاونا بين المثقف الجنوبي والمثقف الشمالي يبقى مستمراً، ومثاله تلك المسرحية الكبيرة "مأساة يارول" التي ألّفها شمالي، هو الكاتب والشاعر الخاتم عبد الله وأخرجها المسرحي الكبير من الجنوب، السماني الوال. بل إن هذا المسرحي الجنوبي يؤسس في الشمال مسرحا جنوبيا هو مسرح المراح، وهكذا يكون حوار المثقفين الحقيقيين .. يقول السماني الوال: "كنا نعتقد أن التحول الاجتماعي المنشود لا بد أن

تتوفر له أدوات معرفية تحفر في التربة الثقافة السودانية الحقيقية لتخرج لنا شكلا فنّيا مسرحيا ينتمي إلى ترابنا وإنساننا في حضوره التاريخي والأسطوري والمستقبلي معا، كنا نعتقد أن الإنسان السوداني موجود في تراثه المتعدّد بالقدر الذي يوجد التراث فيه ... لذلك كان المسرح حجر زاويتنا الأساسية في بناء مسرحنا الحلم، غير أن اندلاع الحرب في الجنوب أعاق ذلك المشروع، ولكن مع تزايد حدة القتال في الجنوب وتدفق الآلاف من النازحين الجنوبين إلى الشمال بما في ذلك الخرطوم نفسها، قلنا لِمَ لا نبدأ من هنا وبذلك الممثل النازح القادم لتوه من الجنوب، وعلى الفور جمعنا عددا من الصبية الجنوبيين النازحين ووضعنا برنامجا متكاملا، حددنا ستّ لُغَاتٍ جنوبية كبداية إضافة إلى العربية (عرب جوبا) على أن تتبعها لغات أخرى مستقبلا".

وتطول سنوات الحرب، ويختنق الحوار في داخل الشاعر السوداني عبد الرحيم أبو ذكرى وينهي حياته منتحرا كما أنهاها مايكوفسكي، وقد جمعتهما المدرسة المستقبلية اتجاها، وكان الشاعر يعد آخر الأوراق في رسالة الدكتوراه بموسكو، وكما أنهى خليل حاوي حياته فيما بعد وهو يستشرف مستقبلا رديئا معتما من خلال المطر الناري الصهيوني. يقول أبو ذكرى:

يا زمن الملوك والأباطرة
يا زمن الحشود والسلاح والسماسرة
يا زمن العواهر المراهقات
يا زمن المساومات
إن كان هذا عصرنا فإنني أهجم في ضراوة عليه
يا أنت، يا سفينة تحمل موتانا إلى البحار
سيري .. تحركي .. حلت عليك لعنة الأكوان
سيري تحركي ... ولا يرحمك الرحمن.

وتحتشد في قصائده مستقبلية سوداء، وأعداء غير مرئيين يعبّر عنهم بصور كهذه: "الدخان الذي صار سقفا للنبض"، "الجيف التي تفوح في الريح"، "الأموات الذين ينشجون كمدا"، "البوم ينعق طوال الليل"، "الرجال ذوو العيون القاتلة"، "أفيال أبرهة الثقال"، "المشوهون والموتى الذين يشتلون الزمن القميء في الساحات" ... وهكذا يختنق الأمل، يختنق في أعماق الشاعر وهو يرى الإنسان تسحقه آلة الظلام:

وقال طائر حزين افتحوا لي بواباتي المغلقة افتحوا لي افتحوا لي
دثّروني بريشي القديم
زمّلوني بحلمي الهشيم

غير أن الطيور الكبيرة
الطيور الجسورة
نفضت ريشها ثم طارت
والسماءات فارت وغارت
وتلاطمت الأنجم
وتفصّد منها الدم
وتعطّل بحر الظلام
فوق ذاك الحطام.

تحاول المنابر الثقافية في السودان إقامة حوار دائم على مستويين:

١. أ- حوار بين جميع الاتجاهات والتيارات الفكرية والأدبية والشعرية المطروحة على الساحة السودانية والعربية.

ب- حوار بين اتجاهات التراث والمعاصرة، في محاولة جادة لولوج الأقلام إلى عمق التراث الثقافي، منفلتة من أطر التاريخية المتحفية التي تسحبه في أضابير الماضي فلا هي قادرة على أن تنهل منه ولا هو قادر على الحركة الطليقة في الحياة.

يقول الشاعر الخاتم عبد الله رئيس اللجنة الإدارية لمجلة الثقافة السودانية: "لعل مناهج الحداثة الغربية يتبنّاها معظم المثقّفين والمفكّرين من أبناء الأمة هي التي أدّت إلى القطيعة بيننا وبين تراثنا، فتغيّر الاهتمام بالتراث نوعا ما، وبالاتجاه السالب باعتباره نمطاً تقليديا ساذجا في نظر الحداثيين المقلّدين للغرب، وأن القطيعة بين أهل الثقافة والفكر تأخذ أشكالا عديدة أهمها هو اعتماد الظواهر الإبداعية من فنون أدبية وموسيقا وتشكيل .. إلخ بمنأى عن أبعادها الحضارية التي تعمل بقوانين التأثر والتأثير في حركة الحياة بشمولها، ولعل هذا ناجم عن عدم انسجام مناهج البحث العلمي وروح التراث وصلته بوجدان الأمة، فالإنجليز عندما أسسوا كلية الفنون الجميلة قصدوا أن يعزلوا هذه الفنون عن واقع الحياة، فوجدت الفنون التجريدية الغربية حظًّا كبيراً من الاهتمام أدّى إلى تغيب الفنون الوطنية الحيّة التي اندفعت في نسيج الحياة العفوية وتدفّقت في مساراتها تدفّقا طبيعيا فصار الإنتاج الفنّي لمدارس الفنون الغربية باهتاً .. وقس على ذلك الكثير من مجالات الإبداع الثقافي".

٢- حوار بين الشمال والجنوب، ليس على المستوى السياسي فحسب وإنما على المستوى الفكري والأدبي. وحب السوداني للحوار هو انعكاس لتلك الطِّيبَة التي جُبلت عليها نفسه، ولحبّه للسلام، وبالرغم من ظروف الحرب فإن أغلب المثقفين في الشمال والجنوب حريصون على الحوار الثقافي من خلال التعبير عن التنوع الثقافي، وهذا أحد بنود الميثاق في اتفاقية السلام الأخيرة.

يقول الدكتور ريك مشار وهو أحد قادة الحرب في الجنوب في حوار أجراه معه صديقنا عادل الباز رئيس تحرير جريدة **السنابل** التي يصدرها بيت الثقافة، يقول ريك مشار بعد أن وقّع على الاتفاق وجنح إلى السلم: "الانتقال من ثقافة الحرب إلى ثقافة السلام يأتي بالحوار المستمر، وللفن دور في توحيد الوجدان، وبالتالي توحيد الشمال والجنوب. أذكر عندما زار الفنّان محمد وردي (وهو من الشمال) الجنوب خرج مئتا ألف لاستقباله، الحقيقة أن الناس لا يعرفون وردي السياسي، وإنما يعرفون الفنّان ويقدّرونه لأنه فنّان، وكل الناس في الجنوب تسمع غناء الشمال وتحفظه، اللغة العربية ضرورية ليس لوحدة الشمال والجنوب فحسب وإنما لوحدة الجنوب نفسه، إذا أن اللغة المفهومة في كل الجنوب هي اللغة العربية".

وحول هذه النقطة يقول أيضاً اريك طون أحد قادة الجنوب في حوار مماثل: "يمكن للّغة العربية أن تجد فرصتها في الجنوب وتصبح عاملا من عوامل الوحدة، كما يمكن للفن أن يكون عاملا من عوامل التوحيد ويسري في الوجدان بنعومة".

تؤسس بعض المنابر الثقافية كمجلة الخرطوم، ومجلة الثقافة السودانية، وصحيفة السنابل وغيرها، القاعدة الضرورية للحوار وذلك بالحوارات أو بترجمة أعمال إبداعية لأدباء من الجنوب ثم تدعو النقّاد لتناولها بالدراسة والتحليل.

يقول الناقد السوداني معاوية البلال في دراسة لنصوص قصصية من الجنوب: "إن هذه النصوص القصصية تندرج ضمن حركة الإبداع السوداني رغم التهميش الذي اعتراها نقديا، وتجلّى هذا التهميش في أن كل الدراسات النقدية التي تابعت حركة الإبداع الحديث قصةً كان أم شعراً، لم تلتفت لهذا الإبداع السوداني الصميمي، بل ركزت جهودها على ذلك الأدب المكتوب باللغة العربية، ولم تعتن بمقارنة الأدب السوداني المكتوب باللغة الإنجليزية مقارنة معرفية جمالية، خاصة وأن هذا الأدب أبدعه أدباء سودانيون وكشف عن تناقضات عوالم سودانية متميّزة".

وقد قدّم هذا الناقد دراسة لعدة قصص منها: "الربيبة" للقاصّة السودانية الجنوبية أغنيس بوني لاكو ترجمة الخاتم عبد الله، وقصة "عودة العاصفة" للقاص ياكوب جل أكول ترجمة الأديبة راوية حسب الرسول.

ناقد آخر هو مبارك الصادق يقوم بدراسة مقارنة لقصتين إحداهما جنوبية والأخرى شمالية تتناولان موضوعا واحدا هو: العاصفة المطرية المرعدة التي تعصف وتغرق وتدمّر، وهي تجربة لها

انعكاساتها النفسية والإنسانية وآثارها الاجتماعية والقصتان هما: "عودة العاصفة" السابقة والمنشورة ضمن مجموعة: **ست عشرة قصة سودانية**، وقصة "برق عبادي" للقاص د. مصطفى مبارك مصطفى.

هذا لون من الحوار تدعو إليه النخبة الثقافية في السودان، وهو مغاير للحوار الدموي الذي يعصف بالأرض وبالإنسان في ساحة غير الساحة الثقافية. وفي أحد أعداد ـ **مجلة الخرطوم** ـ نطالع قصيدتين لشاعر من جنوب الوطن، وقصيدتين لشاعر من إفريقيا وثلاث قصائد لشاعر من شمال الوطن هو مصطفى سند. يقول سكرتير التحرير مجذوب عيد روس: "هذا التنوع في القصائد يأتي في إطار الخط العام للمجلة الذي يعتمد على الحوار بين العناصر الفاعلة المكوّنة لثقافة أهل السودان مع انتباهة للبعد الإفريقي الذي يسم تجربة السودان بالخصوصية والتفرّد داخل إطار الثقافة العربية. وإننا بهذا وحده نضمن أن يقوم الحوار الثقافي على أسس متينة تحفظ لشخصيتنا الوطنية تفرّدها ودورها الفاعل في العمق الإفريقي وفي محيطها العربي".

* القصيدة الأولى للشاعر الجنوبي أبولو سودرو، ترجمة الوليد إبراهيم، وهي بعنوان مهد الطبيعة، يقول فيها:

كنت أقف في الصحراء
كانت السماء حالكة السواد
والقمر لم يكن إلا بدرا
بينما استمع إلى المخلوقات الليلية وهي تتكلم
بالرغم من أنني لم أستطع فهمها
حلت بي سكينة عميقة
سكينة إدراك الفكرة
فكرة رائعة كشعاع القمر
كنت أقف في الصحراء
وسمعت الريح تنادي
قلبي إلى الحاضر السحري
شعرت بنفسي مع القمر أبحر
وبروحي متعلقة بالنجوم
شعوري أصبح صافي الوضوح
مغمضاً ومومضا في تناسق مع النجوم
أمواج العاطفة فيّ

تتموّج في أنماط منتقاة
من قبل قوى
لا يستطيع أحد أن يراها
قلبي يسبر أغوار الظلام
بينما روحي تجوب منفسح الرمال
ناشدة قبسا في السواد الملغز في السر الكبير الماثل
كنت أقف في الصحراء
محاطا بعزلتي، أحاول بكل ما لديَّ الإمساك
بتلك اللحظة: لحظة يقف الزمان ساكنا
كنت أقف في الصحراء
أرقب غوص إرادتي
في أفق الغروب.

يبدو أن هناك خطة معيّنة لتوجيه الحوار في هذا الانتخاب للقصائد المنشورة، فقصيدة أبولو سودرو تقدم صورة للإنسان السوداني الجنوبي الهادئ المتأمل المتماهي في الطبيعة، ولا يمكن لهذا الإنسان إلا أن يكون طيّبا لأن الطبيعة طيّبة، وخير كلها ... إذن من أين يأتي الشر؟ ومن الذي أولع الحرب بين الإخوة المتحدين جميعا مع هذه الطبيعة ... هذه الأم الرؤوم ...؟ الجواب يأتي في قصيدة الشاعر السوداني ـ من الشمال ـ مصطفى سند وهي: بعنوان درجة القبول في الحب والحلول، وقد اخترنا منها هذا المقطع:

المسرجات تنوح من تعب
ويشرب زيتها الليل المعلق في مطارات السهر
المسرجات الخضر نازفة
كأن الأرض تنتظر الزلازل
والرياح تمدّ أذرعها وتعتصر القمر
المسرجات ... مشارق الأرض القديمة في مغاربها
وإرث النيل من زمن العناصر
تستحل الرمل تسكن في مواجعه وتنتظر المطر
وضع الغزاة عليه ميسم حقدهم وتسلقوا جدرانه الخضراء أرتالا

يمدّون العيون إلى منابعه النبيلة
يزحفون من الشمال إلى الجنوب
يمزقون هوى البراعم
ينقشون على الحجر
أشعار هولاكو، وعزرباوند الفاشي
يبتكرون سرّ العمق في لغة الثقافة
منهج السكسون والموتى
وأوراق البصائر وانفعالات النفوس ...
جاء الغزاة الفاتحون ... قرينهم في الغزو كان الكركدن
يعوم في بطر النعومة من حرير العشب والأزهار
للشفق المعلق في جسور الغيم
يفترع الشموس.

وأخيرا: ذلك هو السودان، على مرآة الشعر والثقافة والفكر، السودان هذه القارة الثقافية، والرقعة الجغرافية التي شهدت أعرق الحضارات منذ فجر التاريخ: بعانخي وترهاقا، وأولئك الذين بنوا الأهرامات وبسطوا نفوذهم على وادي النيل حتى مصر، مملكة مروى القديمة التي يعتقد أن صناعة الحديد بدأت فيها، مملكة علوة والمقرة المسيحيتين، ممالك الفونج وتقلا وسلطنة دارفور الإسلامية، حفيدة المملكة الزرقاء مملكة سنّار وأرض الثورة المهدية. ذلك هو السودان الثقافي والفكري الذي يأمل أن يشتار من الحوار الآتي شهدا، فيتوقف النزيف وتلتئم الجراح ويشبع الجياع.

مصادر البحث

١- عبد الهادي الصديق: **اتجاهات الشعر السوداني المعاصر**.
٢- حسن نجيله: **ملامح من المجتمع السوداني**.
٣- مصطفى سند: **الأعمال الشعرية**.
٤- محمد عبد الحي: **العودة إلى سنّار**.
٥- محمد المكي إبراهيم: **الأعمال الشعرية**.
٦- أعداد من صحيفة **السنابل** ـ بيت الثقافة ـ.

٧- أعداد من **مجلة الخرطوم** ـ الهيئة القومية للثقافة والفنون ـ.

٨- أعداد من **مجلة الثقافة السودانية** ـ الهيئة القومية للثقافة وألف نون ـ.

٩- د. حسن الترابي: **حوارات في الإسلام**.

١٠- خليفة خوجلي: **المثقفون السودانيون**.

١١- د. عون الشريف قاسم: **قاموس اللهجة العامية في السودان**.

* * * *